

النظام العالمي الجديد

د . عصمت سيف الدولة

كان تعبير " النظام العالمي الجديد " عنوانا ظاهرا أو خفيا لأغلب ما شغل العالم من أحداث وأحداث خلال عام ١٩٩١ . بدأ به ببواعث حرب الخليج وبانتهاء الحرب الباردة بين المعسكر الإشتراكي والمعسكر الرأسمالي . ويكاد الآن ، مع مطلع عام ١٩٩٢ أن يكون مشروعا مطروحا للتنفيذ قبل نهاية هذا القرن . ولما كان ثمة قوى دولية هائلة تحيطه بقوة دعائية مؤثرة فمن المهم أن نعرف أولا دلالة مفرداته : النظام العالمي والجديد .

أما النظام فيعنى مجموعة من القواعد العامة الملزمة التي تضبط سلوك ومواقف المجتمع ، أى مجتمع . ونموذجها الدستور فى الدولة ، فيقال أن الدولة مجتمع منظم . ولما كان من خصائص النظام أن يكون ملزما لمن يعيشون فى ظلّه فهو يقتضى دائما قيام سلطة عليا تعمل على نفاذه وتردع الخروج عليه بالقوة إذا لزم الأمر . قياسا على هذه الدلالة الأصلية للنظام نستطيع أن نقرر أنه لا يوجد الآن ولم يوجد قط نظام عالمي ، إذ ما زال العالم الكبير المكون من شعوب وأمم ودول شتى خاليا من أية سلطة عالمية عليا تعمل على نفاذه وتردع الخروج عليه . وقد قضت البشرية أغلب تاريخها تتعامل طبقا لنظام الوحوش فى الغابات أعنى الإحتكام إلى القوة . وفيه نشأ نظام الإمبراطوريات . أعنى خضوع مجموعات كبيرة من القبائل والشعوب والأمم لسلطة مركزية واحدة لتدافع بقوتها الموحدة عن وجودها وحدودها ضد الإمبراطوريات الأخرى فى حروب مستمرة ، وكانت الحرب مشروعة بمعنى أن من يغلب يكسب أرضا وبشرا ، وأهم من هذا أن من يهزم يعترف لمن كسب بحق فيما كسبه . ولما نشأت الدولة فى صورتها الحديثة فى منتصف القرن السادس عشر برزت فكرة سيادة كل دولة واستقلالها وبالتالي المساواة بين الدول . وكان يقصد بالدول حينئذ الدول المسيحية الكاثوليكية وحدها . ثم بدأت الدول المستقلة ذات السيادة فى الإلتقاء فى سلسلة مؤتمرات للإتفاق على أسلوب التعامل فيما بينها بدلا من الحروب . أولها مؤتمر وستفاليا (١٦٤٨) الذى أقر مبدأ توازن القوى ومؤداه أن تقوم الدول معا بردع أية دولة تتوسع على حساب دول أخرى . وتبعتها سلسلة من الإتفاقات (أوترخت ١٧١٣ والحياد المسلح ١٧٨٠) آخرها " التحالف المقدس ١٨١٥ ، والتحالف الثلاثي ١٨٧٩ والتحالف الفرنسى الروسى ١٨٩٧ .. الخ ، فقام لأول مرة نظام دولى عام بالنسبة للدول المنضوبة فيه . ورضائى أى بدون سلطة عليا تفرضه وتحميه ، وتأكدت به فى الوقت ذاته سيادة واستقلال الدول . ومع أن تركيا الإسلامية دخلت هذا النظام (١٨٥٦) وبعدها اليابان غير المسيحية ، إلا أن لم يصبح عالميا . وظل الوضع هكذا حتى الحرب الأوروبية الأولى (١٩١٤-١٩١٨) فبرزت فكرة تجنيب العالم مثل الدمار الشامل الذى عانتها فى الحرب فأنشأت منظمة عالمية أسميت عصبة الأمم . وهى عالمية بمعنى أن عضويتها مفتوحة لكل دولة مستقلة ذات سيادة . ومع ذلك لم تنجح العصبة فى أن تكون عالمية ، لسببين رئيسيين . أولهما اشتراط الإجماع فى كل قراراتها ، الثانى هيمنة الإتجاه ألا نجلو سكسونى عليها إلى درجة أدت إلى إنسحاب اليابان وإيطاليا وألمانيا . وقد صفت عام ١٩٤٦ لتخلى مكانها لمنظمة أخرى أنشئت بعد الحرب الأوربية الثانية (١٩٣٩-١٩٤٥) . هى هيئة الأمم المتحدة .

وقد كان المرجو من هيئة الأمم المتحدة أن تكون سلطة عليا عالمية . والواقع أن ميثاقها وتشكيلها وسلطاتها ، خاصة سلطة إستخدام القوة للحفاظ على السلام العالمي . كان تيمنا بأن يقوم بها نظام عالمي لولا تأمر بعض الدول وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية . تأمرها ضد العالم . فقد بدأت المؤامرة باقتراح أمريكي بعقد تحالف عسكري دائم بين الاتحاد السوفيتي ودول الكومنولث البريطاني والولايات المتحدة الأمريكية لتكفل هذه الدول إستقرار السلم إستقرارا أكيدا وتشرف على تنفيذ معاهدات الصلح مع ألمانيا واليابان وإيطاليا تنفيذا كاملا . وعارضت الدول المشاركة فى إعداد ميثاق هيئة الأمم هذا الإقتراح لأنه فى حقيقته إخضاع باقى الدول ، والهيئة ذاتها ، لديكتاتورية قلة من الدول التى تحتج بقوتها لتكون سلطة فوق الدول والهيئة . عادت أمريكا فقدمت إقتراحا بإنشاء مجلس تنفيذى (مجلس الأمن فيما بعد) ليكون السلطة العليا التى تمثل الأمم المتحدة جميعها يكون من بين أعضائه إنجلترا والاتحاد السوفيتي ، والصين ، والولايات المتحدة كأعضاء دائمين وسبعة منتخبون ، يتخذ قراراته بأغلبية الثلثين على : " أن تكون من بينها أصوات الدول الأربع العظمى " . (ضمت إليهم فرنسا فيما بعد) . ولما كان هذا الإقتراح ينشئ سلطة عليا ديكتاتورية على هيئة الأمم المتحدة وقد يتعرض للرفض فى مؤتمر سان فرانسيسكو الذى سينعقد يوم ٢٥ أبريل ١٩٤٥ لإبرام ميثاق هيئة الأمم المتحدة . فقد بادر المتآمرون ونستون تشرشل رئيس وزراء إنجلترا وفرانكلين روزفلت رئيس الولايات المتحدة الأمريكية وجوزيف ستالين رئيس الاتحاد السوفيتي إلى الإجتماع فى يالتا (بالاتحاد السوفيتي) يوم ٥ فبراير ١٩٤٥ واتفقوا على فرض شرط موافقة الدول الخمس العظمى على أى قرار يصدر من هيئة الأمم المتحدة لنفاذه . وهكذا تحولت هيئة الأمم المتحدة ذات الشكل العالمى ، من نظام عالمي، إلى نظام خماسى مفروض على العالم ، ولقد استطاعت تلك الدول أن تحافظ على السلام فيما بينها . واستبدلت بحروبها حروبا إقليمية تقوم بها قوى ودول أخرى لحسابها فى مناطق كثيرة من العالم ..

هذا الصراع فيما بين الدول العظمى صفى مواقفها تبعا لمقدرة كل منها على الإستمرار فيه وانحصرت أخيرا بين دولتين لكل منهما دول تابعة ، الإتحاد السوفيتي والولايات المتحدة الأمريكية . وبينما كانتا تشعلان الحروب فى أطراف الأرض جميعا بقيت الحرب بينهما " باردة " . فتقلص النظام العالمى الذى كان مرجوا من هيئة الأمم المتحدة إلى نظام ثنائى عدائى تدفع فيه شعوب العالم أثمانا باهظة للصراع بين القوتين العظميين .

إلى أن صعد جوربا تشوف إلى مركز قيادة الإتحاد السوفيتي والمعسكر الاشتراكي على سلم الحزب الشيوعى الذى لا يصعد عليه إلا أكثر الرفاق وعيا وإيمانا بالماركسية أو هكذا هو المفروض . ولما كان الرجل يعرف تماما ، ربما أكثر من أى واحد آخر أنه لا يوجد فى العالم نظام عالمي . فقد فاجأ الجميع باقتراح نظام عالمي جديد تحت عنوان جذاب " إعادة البناء " (البروتسرويكيا) . خلاصة ما يهيم العالم منها ، ويتصل بالموضوع ، أن ما تحقق فعلا من تعبئة الأسلحة النووية المتطورة قد أصبح يهدد سلامة الكرة الأرضية ، وبالتالي أصبح الحفاظ على سلامة الكرة الأرضية من مخاطر الدمار الشامل الكامل ذا أولوية مطلقة على كل أنواع الخلاف والصراع بين الدول والأمم يقتضى نظاما جديدا لحل المشكلات يتلخص فى إسقاط الأيديولوجيات ، وإجتئاب الأساليب الثورية ، وإعتماد المفاوضات والحوار (المصارحة) للوصول إلى حلول وسطى . وكان ذلك نظاما عالميا " مثاليا " أى مقطوع الصلة تماما بالواقع

الدولى ومشكلاته ، وكان لابد له من أن يفشل . ولما كان جورباتشوف مثاليا إلى درجة المرض فقد بادر قبل أن تسود فكرته عالميا إلى تطبيقها على العالم الإشتراكي فانفجر ذلك العالم بفعل القوة المكبوتة فيه والتي أدانتها الماركسية فتجاهلها الشيوعيون على مدى سبعين عاما ، أعنى قوة الإنسان القائد الأساسى للتطور وحرية فى ممارسة هذه القوة. ففى دول أوروبا الشرقية حيث الدول قومية بدون إنكار وحرية كل أمة فى صنع مستقبلها منكورة هدمت الشعوب السجن الماركسى وانطلقت لاتدرى إلى أين فقدم إليها الغرب المتربص بضاعته الليبرالية أى الحرية الفردية والمنافسة الحرة بين الأفراد . أما فى الإتحاد السوفيتى فقد كانت الماركسية تنكر على الإنسان حرية الخاصة كما تنكر وتدين إنتماءه القومى . فبرزت القومية لتجسد ذاتياتها بالاستقلال عن موسكو ، وفى كل قومية انطلقت الشعوب لاتدرى إلى أين فقدم لها الغرب المتربص ذات بضاعته الليبرالية أى الحرية الفردية والمنافسة الحرة بين الأفراد . وماتزال الشعوب والقوميات والجمهوريات التى كانت يوما محكومة " بنظام " تعيش فى حالة " فوضى " . وحيث كان الشعب ولو فى حده الأدنى متاحا للكافة بدون عناء ولكن بدون أثرياء شاع الجوع بين الشعب ، واستفحل ثراء الرأسماليين الجدد واللصوص والعملاء . وكل هذا هو التعبير الصادق عن الليبرالية حين تغيب الدولة بالرغم من كل ما بشر به فيلسوف الفوضوية برودون فى القرن التاسع عشر .

ومع ذلك ، فقد أسهم تفكك الإتحاد السوفيتى وتخبط شعوب شرق أوروبا فى طرح فكرة " النظام العالمى الجديد " . ومحاولة إقامته .. كيف ؟.

بانفراد الولايات المتحدة الأمريكية بمقدرتها على السيطرة على العالم ، فالقوة بدون منافس وبالتالي ترشيح دولتها لتكون هى السلطة العليا التى إفتقدتها المحاولة السابقة لإقامة نظام عالمى . هذا هو الجديد بالنسبة لفكرة النظام العالمى ولهذا تسميه الولايات المتحدة الأمريكية بحق النظام العالمى الجديد ويتبعها آخرون ويصبح مفهوما أنه سيكون النظام الذى ترضيه وتروج له أو تفرضه فى النهاية الولايات المتحدة الأمريكية على العالم وتقوم هى بحراسته وتنفيذ قواعده وردع من يخرج عليه بالقوة . تأمل هذه الصيغة ينتهى إلى أنه نظام بمعنى مجموعة من القواعد العامة الملزمة تضبط علاقات الدول والشعوب وأنه عام من حيث الخاضعين له ولكنه فردى من حيث السلطة القائمة عليه ، باختصار أنه ليس نظاما عالميا جديدا أو قديما بل هو تنظيم أمريكى للعلاقات الدولية طبقا للقواعد التى تضعها وتفرضها أمريكا .

ولاشك فى أن هوة الهروب من مسئولية الحرية إحتجاجا بقوة البطش سيقبلون النظام الأمريكى ولكنهم سيدركون أجلا أو عاجلا أنهم قد راهنوا على الجواد الخاسر ، فأجلا أو عاجلا سيذكر التاريخ أن قيام النظام الأمريكى الحالى قد كان نقطة بداية إنهيار وتصفية الولايات المتحدة الأمريكية لذات الأسباب التى أطاحت بالاتحاد السوفيتى وخاصة قوة وفاعلية القومية . فتحت جلد الأمبراطورية الأمريكية التى ستسميها النظام العالمى الجديد ستجتمع كل القوميات فى العالم . حينئذ لن يكون لوحدة القوى القومية إلا هدف واحد هو التحرر من هيمنة الولايات المتحدة الأمريكية واسترداد الاستقلال والسيادة . وأعتقد أن الصراع حينئذ سيكون عالميا فعلا ، أى توحد قوى التحرر فى العالم لإسقاط السيطرة الأمريكية ، ولا أشك لحظة واحدة فى أن النصر فى النهاية للحرية ضد الاستبداد وللشعوب ضد السلطة وللعالم ضد أمريكا .. ومن يعيش يرى ..

فى نطاق كل هذا يصبح مضيعة للوقت والجهد الحديث عن نظام جديد للشرق الأوسط كما يسمونه فالواقع أنه منذ كامب ديفيد إلى حرب الخليج وما بعدهما والعالم العربى ، ولست أسميه الشرق الأوسط ، ينزلق بسلاسة فى جوف الحوت الأمريكى .

لقد أصبحنا جزءا من مشروع النظام العالمى الجديد الذى أوضحنا أنه نظام أمريكى للعالم ولا نستطيع أن نتجاهل أن الترجمة الفعلية لهذه المأساة العالمية الجديدة لن تكون حادة واستفزازية ، ذلك أن عشرات بل مئات الألوف من أدوات الأعلام ومن الفلاسفة ومن المتفلسفين ومن الكتاب والصحفيين والمتحدثين سيحاولون إعداد الشعوب فكريا ونفسيا وماديا لقبول النظام العالمى الجديد ، أعنى النظام الأمريكى للعالم ،

ولا حول ولا قوة إلا بالله .،،،

دكتور عصمت سيف الدولة

القاهرة فى ١٩٩٢/١/٢٢ .